غرور ذميم !!

نسى بنو إسرائيل اسمه لكثرة عبادته ، وإقباله على الله ، تقديسا وتبجيلا ، وعرفه الصغير والكبير باسم (العابد) . .

ويا سعادة النفس حينما تستمع إلى هذا الاسم الجميل ، تنطق به الأفواه وتلهج به الألسنة فيكون له فى الآذان وقع السحر ، يعمل عمله فى القلوب والأفئدة ، وإنه لتيار كهربى يسيطر على الإنسان حينئذ ، فيرى نفسه مع ما هو فيه من فقر وكرب ، وشدة وضيق ، أغنى الناس ، وأيسرهم ، وأنعمهم بالحياة ، وأن ما هو فيه من متعة ولذة . . متعة الروح ، ولذة التقوى والصلاح ، لايقاس بها شىء من لذاذات الحياة كائنة ما كانت هذه اللذاذات .

وعرف الناس العابد فى هـذا الوقت ، رجل جدّ ونشاط ، ودأب متواصل ، وسعى حثيث ، لا فى أمور الدنيا ، بل فى أمور الآخرة ، فيما جاء به الأنبياء والرسل ، من تعاليم سامية ، وأخلاق فاضلة ، وسجايا حميدة ، هى جماع الخلق الإنسانى الرفيع ، الذى يتمناه كل فرد فى هذه الحياة كائنا ما كان . . ! !

وإذا كان الناس يكبرون المادة دائما ، ويرفعونها حيث يجب ألا ترفع

السامية ، قد تتغلب على المادية الصافة ، وتعلو عليها ، فإذا بالناس يقدسون صاحبها و إن لم يكن ذا مال ، و يعرفون له قدره ، و إن لم يكن ذا منصب أو جاه . .

على أن أهل الحق لاينظرون إلى هذه الناحية ، ولا يقيمون لها وزنا ، فهم لاينظرون إلى الأشياء بعين الناس ، و إنما لهم فى تقديرها ميزان آخر غير ميزان الناس ؛ لأنهم لاينظرون إليها مادية توصل إلى ثروة أو جاه ، بل روحانية تدعو إلى الحق ، وتهدى إلى صراط مستقيم . .

* * *

والإنسان بخير ما دامت آماله لا تنطلق مع الشيطان هائمة فى كل واد شاردة فى كل طريق . . أما إذا أصاخ لذلك اللعين وأطاع ، فالويل له ، والسعير عاقبته ومثواه ، وما أقساه عذابا ، وأوجعه عقابا . !

وما أقرب الشيطان إلى النفوس ، يحاول دائما أن يغزوها جهد الطاقة وقدر الاستطاعة ، ويدخل إليها من كل طريق ، وهو لا يزال يطرق الأبواب فى إلحاف و إلحاح حتى يلج ، و إذا وصل إلى القلب أفسد إيمانه بالله بشتى الوسائل ، ومختلف الطرق ، دون أن يشعر بذلك الإنسان المسكين ؛ لأنه كثيرا ما يأتى له من طريق الخير ، لامن طريق الشر .

إذا رأيت ذنبا فلا تستصغره مهما كان فى رأيك حقيرا ، ولا تقترفه مهما كان فى نظرك هينا ميسورا ، يمكنك أن تخلص منه بعد فعله ، وأن

تمحو أثره بعد اقترافه واجتراحه ، فإن هذا هو الجهل بعينه ، وربما كان هذا الذنب سبب بُعدك عن الله . .

وإذا بلغت بك العبادة مبلغا ساراً ، فإياك أن تهدأ أو تطمئن إلى ذلك ، أو تغترّ به ، فإن هـذا أول طريق يصل منه الشيطان إلى قلبك وفؤادك ، دون طويل مشقة ، أو كبير عناء ، وأنت بخير ما دمت تعلم عن يقين ، وتعترف عن إيمان ، أنك لا تزال مقصرا . فإذا ما داخلك الغرور ، فقد هويت يا مسكين ، وأفلت منك الزمام . .

وإذا رأيت مذنبا فلا تعتقد أنه بعيد عن الجنة ، قريب من النار . . فإنك أبعد الناس عن فهم عواقب الأمور ، والعبرة بالخواتيم ، وربما كان هذا الفاسق أقرب إلى الله ، وإلى الجنة من أعبد العابدين ، الذين يحقرون الناس . . ! !

* * *

وفى البيئة نفسها التى درج فيها العابد ، واشتهر بهذا الاسم الجميل ، درج رجل آخر ، ولـكنه حمل اسما غير جميل . . إذ عرفه بنو إسرائيل شريراً ، خليعاً ، لايميل إلى الخير ، ولا يعرف طريق العبادة والزهد ، والتقرب من الله الخالق الأعظم ، فنسوا اسمه ، وأطلقوا عليـه اسم (الخليع) . .

تراه وتشمئز منه النفوس ، ولا يكاد أحد من الناس يصيخ إليه ، أو يعير قوله أى اهتمام .. وكيف يهتم به أحد ، وهو على ما هو عليه من الفساد والعصيان ، يعطى نفسه ما تشتهى من اللذاذات ، ويغرق معها فى بحر خضم من الشهوات والمآثم ، التى يعرفها الناس ، والتى لا يعرفها أحد منهم ، وكأنه أصبح متخصصا فى هذا النوع الرخيص من مطالب البدن ، إلى حد جعله أقرب ما يكون إلى حياة البهيمية المطلقة ، والشهوانية الأثيمة ، التى تنذر بالشر ، وتعلن الخطر فى كل مكان .

لقد كان الناس يتطيرون منه كلما يرونه ، وإذا رآه أحدهم فى الطريق ، ابتعد عنه ، وكأنما هو خطر ماحق ، وشر مدمر مبير ، بينما يعتقد الناس أن رؤية العابد سعادة لا تقوّم بمال ؛ وكيف لا يكون ذلك ، وهو إذا سار تتبعه ظلة لتمنع عنه حرارة الشمس ، ووهج الحر ؟ . أليس هذا إكراما من الله ؟ أليس هذا إعلانا للناس ، وإرشادا لهم ليجتلوا طلعته البهية ، ويسعدوا بصحبته ، وينعموا بالتبرك به ؟ ! .

فرق كبير بين حالين ، هو الفرق بين الرجلين . . بين النور والظلمة والهدى والضلال ، أم بالحرى بين النعيم والجحيم ، والجنة والنار ! ! .

* * *

وادرك هذا كل من الرجلين ، أما العابد ، فكان فى نعيم دائم لهذا الإدراك ، فهو يشعر بمحبة الناس له ، وإقبالهم عليه ، وإنه لسعيد بهذا

الاحترام الذى يجده فى كل سبيل ، ويراه فى كل طريق .. إنه حين يسير فى أى شارع من شوارع البلدة ، يتقاطر عليه الناس من كل حدب وصوب ، الشيوخ والشبان ، الرجال والنساء ، الصبية والأطفال ، يقبّلون يده ، ويتمسحون به ، ويلتمسون البركات تضفى عليهم رضاء الله .

البسمات دائماً فى الوجوه ، والفرحة فى الأسارير ، والإقبال لا الإدبار ، والترحيب لا الفرار .

أما الخليع ، فكان فى جحيم دائم ، وعذاب أليم ؛ لذلك الإدراك أيضا ، فهو يشعر بكراهة الناس له ، واعتقادهم أنه رسول الشيطان على الأرض ، يفرون منه كلما يرونه ، ويسخر منه الصبية والأطفال ، ويجرون خلفه يرجمونه بالطوب والحجارة ، ويرى ذلك أهلوهم ، وذوو قرباهم ، فلا يحركون ساكنا ، ولا ينهونهم عن ذلك العبث الأليم ، بل يشجعونهم ويبشون فى وجوههم ، وهذا هو التشجيع بعينه ، مما يدفع الأولاد ، إلى مضاعفة عذابه ، والتنكيل به ، ويا لشقوة من يعبث الأطفال بمضايقته !! .

* * *

جلس العابد ذات يوم فى الطريق ، وكان الحر شديداً ، والقيظ يكاد يذيب الرءوس ، ولكنه لا يشعر بشىء من هذا ، فالغمامة تظله ،

الطبيعة القاسية ، ولـكنه فى حصن من هذا كله ، بعبادته وتقواه ، فلتشتد الشمس كما تحب وتهوى ، وليعنف القيظ كما يريد ، فإنه فى نعيم وروضة من رياض الجنة .

ومر به الخليع ، فأعجبه هذا المنظر ، وأذهلته هذه الصورة حينا ، فوقف يتأمل فى تفكير وأناة .. وسبح به الفكر فى عوالم شتى ؛ وآفاق واسعة .

أى سعادة هذه السعادة التى يتمرغ فى أعطافها العابد ؟ وأى شقاء هذا الشقاء ، الذى أصطلى به أنا ؟ .. إن السبب فى هذا اتباعى شيطانى ، واندفاعى مع هواى .. إننى لو فعلت كما يفعل العـابد لرضى الله عنى ، ولجعلنى فى نعيم يشبه هذا النعيم ، ومتعة تشبه هذه المتعة . . ولـكنى ظالما أذنبت ، حتى أصبح الذنب عادة متأصلة فىّ ، أحنو إليه ؛ ولا أعيش إلا به يالله ألا يجدر بى أن أترك هذه الطريق الأثيمة التى تدفع بى دائما إلى هوة العـذاب ؛ والألم النفسانى الذى لا أكاد أطيق هوله وعنفه الآن ؟ إن الوقت قد حان لأتجه إلى الله بقلبى وقالبى ، عسى أن يصفح عنى ، ويغفر لى ذنبى ، وإنه لواسع المغفرة ، عظيم الصفح ، إن خير طريق لذلك أن ألتمس البركاتِ من العابد ، وأجلس بجانبه ، عسى أن ينالنى من بركاته ما يقربنى إلى الله .

واتجه الخليع بهـذه الروح التى تفيض ندما على ما فات ، وتحمل أصدق أنواع التوبة الخالصة الصادقة ، إلى حيث يجلس العابد ، لينال من بركاته لعل الله يرحمه . .

ورآه العابد متجها إليه ، فاربدّ وجهه ، ووجد من نفسه الكرب والضيق ، وعجب لهذا الرجل الذليل الحقير ، الذى يسير مع آثامه ومنكراته إلى أبعد حد ، كيف يتجه إليه ، ويتقرب منه ؟ ! !

إن هذا لكثير جداً لايحتمله . . فهو عابد بنى إسرائيل ، العالى المنزلة ، السامى المكانة ، المقرب إلى الله . . أما هذا فهو خليع بنى إسرائيل الذليل الحقير ، الذى يرى فيه كل إنسان عنوان الشر ، ومبعث الفساد . . فكيف يجىء إليه ويقرب منه ؟ . . إنه لو جلس بجانبه فلا بد أن يدنسه ويخفض من قدره ، وينال من مكانته . فلن يسمح له بهذا أبداً ، ولن ينيله هذا الشرف الرفيع . . إن مكانه هناك فى الحانات ، والأزقة المظلمة ، حيث يشرب الخمر ، ويجالس العاهرات ، وليس مكانه هنا ، بجانب العابد العظيم . . عابد بنى إسرائيل ، الذى يقدسه كل إنسان ، ويحترمه كل مخلوق . . ! !

إن هذا الفضل الذى أنعم به الآن ، نلته بسعيى ومجهودى ، فكم سهرت الليل ، يقظ القلب ، واجف الفؤاد ، دامع العين ، موصول الأنين . . ! !

أما هو ، فطالما تمتع بلذيذ الرقاد ، وطيب العناق ، فكيف به الآن يريد أن يلتمس من بركاتى ، وينعم بالجلوس إلى جانبى ، إن هذا لن

واتجه الخليع إلى العابد ، بنفس راضية ، وقلب كله الأمل الحلو ، والرجاء الكبير ، والفرح الغامر ، وما كان أشد دهشته حينما لم يجد ترحيبا به ، ولا رضاء عنه ، وإنما وجد الغلظة والجفوة ، والشدة والقسوة ، والطرد والحرمان ، ولا تزال كلمات العابد ترنّ فى أذنيه :

— قم عنى . . لا تدن منى . .

يالله كيف هذا ؟ إن الذى خلقه وسواه ، ورزقه وتولى رعايته . أمهله ولم يعاجله ولطف به ، وطالما ستره فى كثير من المواقف ، وهو القوى القهار ، فكيف بهذا المخلوق يرده عنه ، ويدفع به بعيدا وكأنه يخشى أن يلوثه ، أو يدنسه ؟ أهكذا يكون شأن القوى مع الضعيف ، إن الآثم لا يفترق عن الضعيف المسكين فى ناحية ما ، بل حالهما سواء ، كلاهما فى حاجة إلى العون والمساعدة ليصل إلى الطريق السوى ، والصراط المستقيم . . إن حاله يشبه الغريق ، الذى أشرف على الهلاك ، فهل يجدر بالقادر القوى ألا يسمع لصيحاته ، ولا يصيخ لندائه ، وأن يعرض عن يده الممتدة فى ذلة ومسكنة وخضوع ؟ إن هذا ليس من شيمة الكرام . . إن الواجب أن تمتد يد القوى لتنقذ الضعيف ، وفى هذا إحياء نفس ، ربما يصلحها هذا الإنقاذ وينتشلها من وهدة الإثم ، ومباءة الضلال المبين . . ! !

* * *

وغضب الله على العابد حينما وجد الشيطان سبيلا إلى نفسه ، فملأ الغرور قلبه ، واعتز بعبادته ، وأيقن أنه نال ما نال بجهده هو ، لا بتوفيق الله

سبحانه له ، مما دفعه إلى احتقار مخلوق لايفترق عنه فى شىء ، بل هو فى ذلك الوقت قريب من الله ؛ لأنه ندم على فعله الذميم ، وخطاياه الأثيمة ، والندم هو التوبة الصادقة التى لارياء فيها ولا نفاق . .

وأوحى الله إلى نبى ذلك الزمان ، الحكم العادل :

« مرهما فليستأنفا العمل . . فقد غفرت للخليع ، وأحبطت عمل العابد .. » .

وهكذا وقف كلاهما . . العابد والخليع ، مرة ثانية ، على أول درجة من درجات الحياة ، يتطلعان إلى الأفق البعيد ، لا يدرى أحدهما ماذا ستكون نهايته ، وما يخبئ له القدر فى طيات كتمانه ؟ ؛ لأن العبرة دائما بالخواتيم . .

لقد تساوت الرءوس . . فوقفا ينظران إلى الحياة ، نظرة ساذجة حيرى وكأنما ولدا من جديد . . ! !